خطبة صلاة الجمعة 16/5/2014 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(أخطاء شائعة –15– عدم الرجوع إلى الكبير)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْقَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286].

وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135].

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذا أَخْطَأَ خطيئَة نُكِتَتْ في قلبه نُكْتَةٌ، فإِذا هو نَزَعَ واسْتَغْفَرَ وتابَ، صُقِلَ قلبُه، وإِنْ عادَ، زِيدَ فيها، حتى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وهو الرَّانُ الذي ذكره الله ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**[المطففين: 14]» [أخرجه الترمذي].

هذه هي الخطبة الخامسة عشرة في سلسلة: (**أخطاء شائعة**).

هدف السلسلة السعي لتصحيح ما استطعنا من هذه الأخطاء، فإن الله تعالى لا يهلك قرية أهلها متناصحون مصلحون ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: 117].

تتناول السلسلة خطأً في العلاقات الأسرية مرةً, وشعارها: (أسرتي سكني ومسؤوليتي) وخطأً في معاملاتنا المالية مرة أخرى، وشعارها: (أسواقنا مرآة ديننا).

وخطبة اليوم من النوعين، وعنوانها: (عدم الرجوع إلى الكبير).

أيها الإخوة:

في أسرنا وأسواقنا التجارية فضائل ورثناها عن آبائنا، وننعم بالخير كلما نمت الأخلاق والفضائل بمقدار ما تنمو الأموال والبنون والبضائع.

ومن هذه الفضائل وجود الكُبَرَاء في الأسر والأكابرِ في السوق التجاري، يرجع أفراد العائلة إلى قول كبيرهم ويصدر أهل السوق عن رأي أكابرهم.

وكم دفع هؤلاء الكبار عن الناس من مكروه وكم ساقوا إليهم من مرغوب.

قِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ : مَا أَكْثَرُ صَوَابِكُمْ؟ قَالَ: نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا أَلْفُ حَازِمٍ.

فهذا شاب يريد طلاق زوجته؛ لإساءتها غير أنه لا يفعل حتى يرجع إلى كبير العائلة، فإذا رجع إليه نصحه نصائح وأرشده إرشادات وأمره بالإبقاء على زوجته، فأبقاها، فدامت حياتهما واستقامت أسرتهما وأنجبا الخيرين والخيرات.

وهذا تاجر يريد سفراً؛ لضيق الحال فيستشير شيخ التجار فيدله على عمل يغنيه عن الناس ويبقيه بين أهله وولده.

وهذا أب يضيق ذرعاً بولده المشاكس فيريد هجره وقلاه فيتوسط الجد وهو كبير العائلة ذو الرأي الحصيف والقول السديد لعودة الابن إلى حضن أبيه ورعايته، فيحمي الابن من التشرد والانحراف، والوالدين من لوعة فقد الابن.

وهذا الشاب قليل الحيلة فقير الحال يريد زواجاً ولا معين، تضيق عليه الأرض بما رحبت فيجد في الكبير موئلاً وملجأً، يجمع له مالاً من أغنياء العائلة ليعينه على الزواج وليوسع عليه ما ضاق.

إن وجود الكبير فضيلة في جوفها فضائل، كيف لا؟! والنبي صلى الله عليه وسلم يقول:«**البَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ**» [ابن حبان والطبراني والحاكم] ويقول صلى الله عليه وسلم: «**أَمَرَنِيْ جِبْرِيْلُ أَنْ أُقَدِّمَ الأَكَابِرَ**» [الشافعي في الفوائد].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83].

أولو الأمر هنا ذوو الرأي والمشورة.

جاء في فتح القدير: (**كان جَمَاعَةٌ مِنْ الْمُسْلِمِينَ إذَا سَمِعُوا شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ فِيهِ أَمْنٌ– نَحْوَ ظَفَرِ الْمُسْلِمِينَ وَقَتْلِ عَدُوِّهِمْ، أَوْ فِيهِ خَوْفٌ نَحْوَ هَزِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ وَقَتْلِهِمْ– أَفْشَوْهُ، وَهُمْ يَظُنُّونَ: أَنَّهُ لَا شَيْءَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، فقال الله: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرسول وإلى أُوْلِى الأمر مِنْهُمْ﴾، وهم أهل العلم والعقول الراجحة الذين يرجعون إليهم في أمورهم.**

والمعنى : أنهم لو تركوا الإذاعة للأخبار حتى يكون النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي يذيعها، أو يكون أولو الأمر منهم هم الذين يتولون ذلك؛ لأنهم يعلمون ما ينبغي أن يفشى ، وما ينبغي أن يكتم).

فالكبير مرجع في العسر واليسر في القرآن.

وفي سورة المائدة: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ [المائدة: 12].

قال المفسرون: (**أخذ الله العهود والمواثيق على بني إسرائيل بواسطة نبيّهم موسى عليه السّلام، ليعملن بالتوراة، وأمره أن يختار اثني عشر نقيباً منهم، يتولون شؤون الأسباط –ذرية يعقوب– ويرعونهم).**

فالنقيب: كبير القوم العالم بأمورهم الذي ينقب عنهم وعن مصالحهم فيها.

والنقْب: أصله الطريق في الجبل، وسمي به نقيب القوم؛ لأنه طريق إلى معرفة أمورهم.

أيها الإخوة:

إن من الخطأ ألا يكون لأحدنا كبير يسترشد برأيه ويستنير بعقله وخلقه، ويأتمر بأمره ونهيه. وكم جرَّ ذلك على أسرنا وأسواقنا من آلام.

ترى زوجاً غضوباً نَزِقاً يهجر زوجته هجراً يؤذيه ويؤذيها فإذا أردت الإصلاح وسألت عمن يمون عليه ويهتدي بهديه؟ قيل لك: إن أحداً لايستطيع أن يأمره وينهاه؛ لأنه لايستجيب لأحد، فهو مُعتَدٌّ برأيه معجب بقراراته.

ويراجعك بائع، له على زبون مبالغ مالية كبيرة، يريدك أن تتوسط في الأمر فتسأل عن الكبير الذي يرجع إليه هذا الزبون لتتدارس معه الأمر فتعلم أن لا كبير له، فهو بنظر نفسه الكبير الذي لا كبير له والرأس الذي لا رأس له.

وتحرد زوجة وتمضي إلى بيت أختها، فيأتيك الزوج للوساطة فتتحرى لتعلم أن لا أحد يستطيع الأمر أو النهي على هذه الزوجة، بل هي معجبة برأيها مغرورة بنفسها لَا تأتمر ولا تنتهي إلا بما يوافق هواها.

قال الإمام الغزالي: (**ومن أُعجِب برأيه وعمله منعه ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف عن سؤال من هو أعلم منه، وربما يُعجَب بالرأي الخطأ الذي خطر له فيُصِرُّ عليه فلا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستجهال ويُصرُّ على خطئه،... قال الله تعالى:** ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر: 8] وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 104].

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ، وَثَلَاثٌ مُنَجِّيَاتٍ، وَثَلَاثٌ كَفَّارَاتٌ، وَثَلَاثٌ دَرَجَاتٌ. فَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ. وَأَمَّا الْمُنَجِّيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الْغَضَبِ، وَالرِّضَى، وَالْقَصْدُ فِي الْفَقْرِ، وَالْغِنَى، وَخَشْيَةُ اللَّهِ فِي السِّرِّ، وَالْعَلَانِيَةِ. وَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ: فَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، وَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ، وَنَقْلُ الْأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ. وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلَامِ، وَصَلَاةٌ بِاللَّيْلِ، وَالنَّاسُ نِيَامٌ**» [رواه الطبراني في الأوسط].

وقال ابن مسعود: (**الهلاك في اثنتين القنوط والعجب**).

وفي الآثار: (**كفى بالمرء علماً إذا عَبَدَ الله، وكفى بالمرء جهلاً إذا أُعجب برأيه**) [رواه أبو نعيم، والبيهقي، عن مسروق نحو مرسلاً].

أيها الشباب:

اتخذوا لأنفسكم كباراً ترجعون إلى مشورتهم وتصدرون عن آرائهم، تضيفون عقولاً إلى عقولكم وتأخذون مِنْ رَأْيِهِم بالمجّان مَا قَامَ عَلَيْهِم بِالْغَلَاءِ.

- أنتم تعلمون اليوم أن كبار القوم لهم مستشارون يرجعون إليهم ويهتدون بعقولهم، وكلما كبر المرء زادت حاجته للكبير المستشار وربما احتاج لهيئة استشارية أو هيئات.

- وأنتم تعلمون اليوم أن السيرة الذاتية لأحدكم تشمل المعَرِّفين وهم الكبار الذين يَعْرِفونكم، وكلما كان المعرِّفون كباراً علماً وفضلاً ومنزلةً كنتم بنظر الشركة أدعى للقبول.
- وأنتم تعلمون اليوم أن شهادة التزكية التي ينالها أحدكم من كبير قوم في الطب أو الهندسة أو التجارة أو الأدب أو الصناعة أو الشريعة لعلها تكون أوثق في يده من شهادته الجامعية أو تساويها.
- وأنتم تعلمون اليوم أن أحدكم لو ذهب بمفرده خاطباً لرده أهل الفتاة حتى يأتي بكبار عائلته ليكونوا له أعواناً ومعه وجاهة.
- وأنتم تعلمون أن الاستشارات أضحت اليوم علماً وعملاً، والشركات الاستشارية تتقاضى مقابل تقديم المشورة عشرات الآلاف ومئاتها وألوفِها.

يا أيها الشباب:

من لا كبير له لاتدبير له، ومن لاكبير له فليبحث عن كبير. واعْلَمُوا أَنَّ مِنْ الْحَزْمِ أَنْ لَا تُبْرِمُوا أَمْرًا وَلَا تُمْضُوا عَزْمًا إلَّا بِمَشُورَةِ كبير ذِي رَأْيٍ ناصِحٍ وَعَقْلٍ راجِحٍ.

قَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ : مِنْ حَقِّ الْعَاقِلِ أَنْ يُضِيفَ إلَى رَأْيِهِ آرَاءَ الْعُقَلَاءِ ، وَيَجْمَعَ إلَى عَقْلِهِ عُقُولَ الْحُكَمَاءِ، فَالرَّأْيُ الْفَذُّ رُبَّمَا زَلَّ وَالْعَقْلُ الْفَرْدُ رُبَّمَا ضَلَّ.

فَإِذَا عَزَمَتم عَلَى اتخاذ الكبير الناصح **فابحثوا عمن جُمعت فيه أربع خصال:**

1- عَقْل راجح.
2- وتَجْرِبَة سَالِفَة.
3- وتقوى غالبة.
4- وودٌ قديم.

أيها الإخوة:

عدم الرجوع إلى الكبير خطأ ، والصواب مشورة أولي التقوى والألباب والنزول على رأيهم.

نسأل الله أن يعيننا على تصحيح أقوالنا وأفعالنا حتَّى يعجِّل لنا بالفرج

والحمد لله رب العالمين